

منهج العهد القديم في تأريخ الرجال

أعلام النص؛ دراسة وتحليل

إعداد

د. وليد مسعود أدهم منصور
كبير باحثين بمركز المخطوطات، مكتبة الإسكندرية
باحث في تاريخ الأديان

منهج العهد القديم في تأريخ الرجال أعلام النص؛ دراسة وتحليل

وليد مسعود أدهم منصور

كبير باحثين بمركز المخطوطات، مكتبة الإسكندرية - باحث في تاريخ الأديان- مصر

البريد الإلكتروني : Walid.mansour@bibalex.org

الملخص:

طبيعة النص المقرائي ككتاب ديني لا تشابه الكتب الدينية الأخرى؛ حيث اختلطت فيه المادة التاريخية بتفاصيلها الدقيقة مع المادة الدينية بمضامينها التشريعية والعقيدية.

وقد تمت صياغة هذا المزيج المعقد في إطار أدبي وفق نسيج مميز من المقالات الدينية والتاريخية، وتتحد هذه المركبات معًا لتحقيق هدفين رئيسيين: أحدهما: التأكيد على ديمومة مفهوم وحدانية الإله، والثاني صياغة حياة آباء بني إسرائيل وتاريخ أبنائه بشكل عام وِفْق أسلوب خاص مشمول بدلالات المثالية والاستقامة.

استكشاف هذا المنهج ودوافعه هو موضوع هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية : منهج - العهد القديم - تأريخ الرجال -أعلام النص

The approach of the Old Testament in the history of men, the flags of the text; Study and analysis

Walid Masoud Adham Mansour

Senior Researcher at the Manuscript Center, Bibliotheca Alexandrina - Researcher in the History of Religions - Egypt

E-mail : Walid.mansour@bibalex.org

Abstract:

The nature of the Jewish Bible as a religious book which is not similar to the other general religious books, in which historical material have been mixed in its detail with religious material; legislation and doctrine, and this complex mixture was formulated in a literary framework that has its distinctive texture which is parallel to the historical and religious articles, and these compounds are united together to achieve two main goals: one of them : The perpetuation of the concept of the oneness of God is always emphasized, and the second: the formulation of the history of the masters of the religion and the history of the Jews and the children of Israel in general in accordance with a special method covered with indications of idealism and integrity.

Text; exploration of this approach and its motivations is the subject of this study.

Keywords: curriculum - Old Testament - men's history - text flags

مقدمة

المادة التاريخية في النص المقرائي متفردة من حيث منهجها وطريقة تناولها، حتى إنه لَيُخيّل للباحث أن يصف النص بأنه مادة تاريخية في إطار دلالات عقدية وتشريعية، غَلَبَها تاريخُ أسرة يحمل النصُّ سيرتها على الصلاح والاستقامة، بحقٍ أحيانا وأحايين لا تخلو من العاطفة.

إذ أتى عليها الزمن بعنفوانه فنال منها بما يقارب العشرة قرون، والمادة المقرائية في هذا التيه من الزمان بل والمكان تتأرجح شفاهةً بين ألسن الناقلين، حتى جُمعت بعد أجيال من نشأتها في إطار قصصي لا يخلو من تشويق أدبي بعضُهُ عارٍ عن العقل غالب على العاطفة، وموضوعه الأساسي دوام التذكير بعبادة إله إبراهيم العبراني وفق دلالات تشير إلى نقائضها أكثر مما تدل على حقيقة مقاصدها التي وُضعت لأجلها.

ولاريب أنّ ثمة أسباب ودوافع حملت على هذا الإشكال في المقصد والدلالة، ليس هذا محلها إلا بما يتطلبه هذا البحث في قصاراه، وإذا كان مقصده العقدي هو دوام التذكير بإفراد الرب (يهوه) بالعبادة، على شريعة موسى، متنسما رائحة الوحدانية من تاريخ الآباء الكبار، فإنه قد جعل تاريخ الجماعة العبرية المُتَجَذِّر جغرافيا وزمنيا هو المادة الأساسية والركن القائم للتعبير عن هذا المقصد العقدي، ومن خلال التجوال بين ثنايا النص لا نكاد ندرك أيهما يدور حول الآخر، أَإِفرادُ يهوه بالعبادة والتسليم أم تاريخُ الجماعة العبرية؟

غير أن عنصري التاريخ والجغرافيا كانا أكبر مما يستوعبه مدونو النص المقرائي، فكانوا كمن يجتهد في الإبحار بيديه مقابل الرياح العاتية؛ فجاء عنصر التاريخ في البناء المقرائي موضع جدل ومحل مدارسة من جميع الأجيال.

ولعل من الجوانب البارزة هي طريقة النص في التأريخ لأعلامه وأعلام

خصومه على السواء، وهو ما حاولت استنباط بعض دقائقه في هذه الورقات، من خلال المنهج التكاملي الذي يوافق طبيعة النص؛ من حيث التاريخ والأدب والديانة؛ فجاء البحث موزعا على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

عرجت فيها على منهج مدوني النص في تعريفهم للأعلام والأعلام الخصوم لبني اسرائيل ثم الأسباب والنواتج. فإن أكن وفقت فبها ونعمت وإن تكن الأخرى فحسبي أن يُنسَخ خطئي بصواب العلماء الأجلاء والباحثين الفضلاء.

المبحث الأول: تأريخ الأعلام في المقرا

النص المقرائي؛ هو مادة دينية في إطار تاريخي، نُسِجت في صبغة أدبية، ورغم فحواه الدينية والتاريخية إلا أن ثوبه الأدبي طغى عليه حتى فاض على غيره من المضامين، فصار من نافلة القول أنْ يوصف جملًة بأنه نص؛ وابن بيئته؛ يجري عليه ما يجري على عناصر البيئة من حوله، من حيث سذاجة البدايات ثم التطور ثم الشيخوخة وطوارئ التغير والتناقض. كثر ذلك في مادته حتى اتسع الخرق على الراتق وهو يحاول اصطناع وحدة موضوعية متكاملة، أدبًا وتاريخًا وعقيدة وشريعة ليرى من خلالها عنصر القداسة.

ولذلك صارت دراسته في إطار علم الأدب لازمًا علميا "و مهمة علم الأدب بالنسبة إلى العهد القديم يجب أن تتشكل الأساس المنهجي لتاريخ أدب بني إسرائيل الموروث في العهد القديم...وتتضمن التأليف والتحرير المتأخر من جانب آخر...ويجب أن تراعي الخلفية الشرقية القديمة([١])"

على أن التداول الشفاهي للمادة المقرائية لزمان سحيق، أدَّى ولابد إلى اختلال عنصر الحكاية في أركان النص، فصار بّينا لكل باحث أن النص هو

١ – جيورج فورر، تاريخ أدب بني إسرائيل وبدايات الأدب اليهودي، ت: أحمد محمود هويدي، مراجعة: محمد خليفة حسن (٢٠١٨) ط: أولى، ص: ٤٦.

في حقيقته مادة متداولة، لم تثبت أخيرًا على حالها الأول.

"إن أحد الموضوعات المشتركة في إبداعات العهد القديم الكثيرة هو الصراع بين البطل الأدبي الإله وبين أبطال الأدب من البشر، ويتجلى التعبير عن ذلك في قصص واقعية مثلما في رواية الآباء والأمهات في سفر التكوين، بداية من وصف الجدال حول مشكلة أخلاقية العقاب الجماعي، الذي يدور بين إبراهيم والإله، عندما يرسل الإله مبعوثيه لتدمير سدوم وعمورة .ثم يتهم إبراهيم الإله بأنه يصدر حكما على كل الأرض دون أن يقيم محاكمة ([١])"

يبدو هذا جليًا حين نقف على تأريخ النص للأعلام الواردة فيه

وقد ظهر لي أنَّ استبيان تاريخ أي شخصية واردة في العهد القديم يمكن تلمسه بداءةً ودون عناء إذا طُرح تاريخ هذه الشخصية تحت مضمون الجواب عن خمسة أسئلة؛ وهي على التالي:

س١: هل الشخصية الواردة في النص المقرائي يهودية أم لا؟

س٢: هل الشخصية من أركان التاريخ أم لا؟

س٣: إذا كانت الشخصية يهودية؛ فهل هي يهودية متدينة أم لا تبالي بقواعد الشريعة في غالب حياتها؟

س٤: إذا كانت الشخصية يهودية وذات قيمة؛ فهل أساءت إلى إحدى الشخصيات الأكثر أهمية وتعد ركنًا من أركان الدين والتاريخ؟

س٥: إذا كانت الشخصية غير يهودية؛ فهل كانت عدوًا صريحًا للشعب والديانة أم قدمت معروفًا للتاريخ اليهودي والشعب والديانة؟

وعند عرض أي شخصية واردة في النص المقرائي تحت مضمون الإجابة عن هذه الأسئلة الخمس، فإن جزءً كبيرًا من تاريخها، بل ومآلها الأُخروي من وجهة النظر المقرائية سوف يتضح دون كبير عناء.

---

١ – يعقوب ملكين، يهودية بلا إله، ت: أحمد الراوي، مراجعة وتعليق: أحمد محمود هويدي (٢٠١٢) مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة، ص: ٢١٨.

حينما يعرض النص المقرائي لتاريخ الأعلام الواردة به فإننا نجد أنها ترِد تحت خمس طبقات؛ ووَصفُها على النحو التالي:

الطبقة الأولى: الآباء الكبار؛ إبراهيم وسارة وإسحق ورفقة ويعقوب وزوجاته ويضاف إليهم موسى وهارون.

الطبقة الثانية: آدم أبو البشر وحواء ويشوع خادم موسى وأبناء يعقوب ويضاف إليهم داوود وسليمان.

الطبقة الثالثة: نوح ولوط وعامة أنبياء بني إسرائيل الصادقين مثل: زكريا وحزقيال وعاموس وناحوم وعزرا وميخا ويونا وحبقوق ودانيال وخلدة النبية ودبورة النبية وإلياهو ومَن على مثالهم.

الطبقة الرابعة: أبناء آدم وأحفاده وأحفاد يعقوب المباشرين، والشخصيات العامة في بني اسرائيل على مدار النص.

الطبقة الخامسة: وتضم الأنبياء الكذبة والشخصيات المرذولة والشخصيات المجهولة.

وكل طبقة من هذه الطبقات لها طريقةٌ؛ تَعاملَ معها مدونو النص من خلالها ولها فقط دون غيرها، ولعل هذه الطريقة لتعامُل المدونين مع مختلف الشخصيات داخل النص هي ما جعلني أضم شخصيات متباعدة تاريخيًا داخل طبقة واحدة، ذلك أن النص المقرائي نظر إلى هذه الشخصيات المختلفة بمنظور واحد فاستوجب ذلك أن توضع في طبقة واحدة وإن تباعدت أزمانها.

الطبقة الأولى: وتشمل الآباء الكبار لديانة وتاريخ بني اسرائيل؛ إبراهيم وسارة وإسحق ورفقة ويعقوب وزوجاته إضافة إلى موسى وهارون.

وتضم هذه الطبقة؛ الآباء الثلاثة الكبار في تاريخ الديانة والشعب والذين سيكون عليهم التعويل في كل ما هو قادم من تاريخ اليهود، ثم موسى وهارون لدورهم الرئيس في صوغ الديانة بشكلها المستقَر عليه واختيارهم من قبل الرب لقيادة الجماعة في خروجها من مصر والتحرر من سلطة فرعون، فعلى هؤلاء

جميعًا مدار تاريخ الجماعة وهم الركن الأساسي وحجر الزاوية في ضبط ميزانها من شتى النواحي، ولذلك تعامل مدونو النص مع سيرتهم بالقدر الأكبر من الاهتمام واجتهدوا في إبراز صورتهم على النحو الأمثل، وباستقراء سيرتهم جميعًا نقف على أنَّ المدونين كان ينظرون لهم باعتبارهم طبقة واحدة وإن لم يقصدوا التعامل من هذا المنطلق.

ومن الجدير بالذكر أنه يمكننا اعتبار أسفار موسى الخمسة هي الوعاء الحامل لغالب تاريخ هذه الطبقة أو الدلالة عليه، ولا يخفى ما للأسفار الخمسة من قيمة تربو على جميع الأسفار " إذ يبدأ العهد القديم في جميع أشكاله بالكتب الخمسة...وتُجمع دائما معا، ويشكلون في الشريعة اليهودية؛ التوراة أو القانون، ولقد نُسبوا تقليديا إلى موسى وأحيانا يُستشهد بهم تحت اسمه...ولهذه المجموعة في اللاهوت اليهودي درجة أعلى من القداسة مقارنة بغيرها من كتب العهد القديم، وكثير من اليهود الأرثوذوكس الذين يسمحون لأنفسهم بقبول التعليقات النقدية لأسفار الأنبياء والمكتوبات لا يشعرون بحرية التعامل بذات الطريقة مع أسفار التوراة(١) "

ونلاحظ في منهج مدون النص لهذه الطبقة أنه بقدر أهمية الشخصية تاريخيًا ودينيًا فإنه تُنسج لأجله الحكايات والأساطير وروايات البطولة وكل ما من شأنه رفع مقامهم؛ وفي الوقت ذاته يُتجاهل في كثير من الأحيان التعليق على ما يشوبهم. كل ذلك من أجل تثبيت صورة ذهنية مقبولة عنهم تاريخيًا، حتى لو أدى هذا إلى إيقاع الظلم على من لم يقترف ذنبًا. كما حدث لفرعون في صنيعه غير المقصود بسارة زوج ابراهيم.

والمبني أساسًا على توصيف ابرام لها أنها أخته، ووفقًا للنص تك ١٢:

١ - W. O. E. OESTERLEY D.D. Litt.D. THEODORE H. ROBINSON D.D. LITT.D AN INTRODUCTION TO THE BOOKS OF THE OLD TESTAMENT (1961) PRINTED IN GREAT BRITAIN P: 22.

١٧-٢٠ (فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة ابرام. ١٨ فدعا فرعون أبرام وقال: «ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني انها امرأتك؟ ١٩ لماذا قلت: هي أختي، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي؟ والآن هوذا امرأتك! خذها واذهب!». ٢٠ فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له)

وفي سفر التكوين ٢٠: ٢-٦ (وقال إبراهيم عن سارة امرأته: «هي أختي». فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة. ٣ فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له: «ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها، فانها متزوجة ببعل». ٤ ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب اليها، فقال: «يا سيد، أأمة بارة تقتل؟ ٥ ألم يقل هو لي: إنها أختي، وهي أيضا نفسها قالت: هو أخي؟ بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا». ٦ فقال له الله في الحلم: «أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطئ إلي، لذلك لم أدعك تمسها)

فيتكرر المشهد ذاته مع أبيمالك والعجيب أن النص يشهد لأبيمالك بسلامة القلب، وخلو النية من تعمد أو إرادة الإساءة إلى إبراهيم.

هذه المعادلات غير المتناسقة في النص المقدس، على الدوام تثير شهية الباحثين للتساؤلات، حتى الإسرائيليين منهم، فنقف على رأي أحدهم وقد أعياه التأويل، فيقول "وبالنسبة لنا، فإن التمييز بين التأريخ المقدس والتأريخ الأكاديمي ليس له أهمية كبرى .فسواء قام إبراهيم أو موسى أو الملك داوود فعلا بما قاموا به (بكل التفاصيل) أو تحدثوا عن كل الأشياء المذكورة في التوراة أم لم يقوموا بها فإن ذلك يعتبر أقل أهمية من ملاحظة الكيفية التي وصفوا بها في التقليد اليهودي، وأقل أهمية أيضا من فحص محتوى أقوالهم وأفعالهم (١)"

١ - روبن فايرستون (وآخرون)، ذرية إبراهيم؛ مقدمة عن اليهود للمسلمين، ت: عبد الغني بن إبراهيم، معهد هاربيت وروبرت للتفاهم الدولي بين الأديان؛ اللجنة اليهودية الأمريكية، ص: ١٤.

ولما كان إسحق هو الأب الثاني في تاريخ الجماعة، فقد مُنح حق البكورية على حساب أخيه الأكبر إسماعيل؛ في مخالفة صريحة وفجة لأعراف النص المقرائي واليهودية في إثبات حق البكر والتأكيد عليه، بل إن التكوين ٢:٢٢ يتجاوز بجراءة شديدة وجود إسماعيل ويعتبر إسحق هو الإبن الوحيد لإبراهيم، (فقال: «خذ ابنك وحيدك، الذي تحبه؛ إسحاق، واذهب إلى أرض المُريا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك) (וַיֹּאמֶר קַח-נָא אֶת-בִּנְךָ אֶת-יְחִידְךָ אֲשֶׁר-אָהַבְתָּ, אֶת-יִצְחָק, וְלֶךְ-לְךָ, אֶל-אֶרֶץ הַמֹּרִיָּה; וְהַעֲלֵהוּ שָׁם, לְעֹלָה, עַל אַחַד הֶהָרִים, אֲשֶׁר אֹמַר אֵלֶיךָ)

وإذا كانت بعض التأويلات ترى المقصود أنه الوحيد من زوجة حرة وأن إسماعيل إبن للجارية، فأين تذهب البركات التي مُنحت لإسماعيل والبُشريات التي بُشر بها إبراهيم فيما يخص إسماعيل وهي تحمل ثناءً من الرب على إسماعيل، أضف إلى ذلك أن إسماعيل لم يقترف جرمًا ولم يثبت النص أنه أتى ما يستوجب العقوبة حتى يُحرَم.

ولعل مما يُذكر للدلالة على عنصرية النص المتعمدة تجاه إسماعيل لحساب أخيه إسحق، أنه عند ذِكر وفاة كل منهما، يُذكر اسماعيل ذكرًا عاديًا مثله مثل غيره، أنه مات وانضم إلى قومه، فيورد تك ١٧:٢٥ (وهذه سنو حياة اسماعيل: مئة وسبع وثلاثون سنة، وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه)

وأما عند ذكر خاتمة إسحق فيقول تك ٢٩:٣٥ (فأسلم إسحاق روحه ومات وانضم الى قومه، شيخا وشبعان أياما. ودفنه عيسو ويعقوب إبناه) (וַיִּגְוַע יִצְחָק וַיָּמָת וַיֵּאָסֶף אֶל-עַמָּיו, זָקֵן וּשְׂבַע יָמִים; וַיִּקְבְּרוּ אֹתוֹ, עֵשָׂו וְיַעֲקֹב בָּנָיו) أي مات شيخًا وشبعان أيام وهو تعبير لم يحظ به أحد في خاتمته سوى ابراهيم واسحق وأيوب، وإنما يُذكر التعبير للدلالة على بركة الأيام التي يُمنحها صاحب هذه الترجمة، رغم أن اسماعيل لم يمت صغيرًا نسبيًا فقد مات عن مائة وسبعة وثلاثين سنة.

ثم تأتي شخصية يعقوب بكل ما لها وما عليها، فيبرز بجلاء منهج

المدونين للنص، إذ لما كان يعقوب هو أحد الآباء الكبار ووالد الأبناء الذين سيشكلون تنفيذ الوعد الإلهي لإبراهيم بمنحه ونسله الأرضَ التي تفيض لبنًا وعسلًا، فقد استوجب القدر الأكبر من غيره؛ من حيث تجاهل التصرفات المُشينة الصادرة منه كإحدى الشخصيات التي لها دور البطولة، رغم التعليق على ما هو أدنى منها إذا وقعت من غيره، وأحيانًا التماس الأعذار لخطاياه، بل وتجاوز الأصول المرعية في العقيدة والديانة من أجل الحبكة الدرامية، كالذي يرويه الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين، إذ يتحايل يعقوب على أبيه إسحاق بمساعدة أمهما رفقة التي كانت تؤثره على أخيه عيسو حتى نال بركة أبيه إسحق والتي كانت مقررة أصلًا لعيسو.

وليس ذلك فحسب بل إنّ النص يبالغ إلى حد بعيد في اصطناع مشهد أسطوري لمصارعة يعقوب مع الرب، تصويرًا له بالبطل الخارق، وهو ما ينسحب بالتبعية على تصور قوة نسله وذريته في نفوس الدول والممالك المحيطة بهم في الشرق القديم.

ويقف المؤرخ المقرائي من تاريخ الآباء على وجه الخصوص موقفا عاطفيا للغاية، إذ يشكل تاريخ الجماعة العبرية عنده منذ البدايات مفهوم الأسرة الواحدة وهو ما يستلزم الدفاع عنها وتجميل صورتها على أية حال

"والشكل الواضح للأسرة العبرية هو عائلة إبراهيم الذي أُعتبر أَبًا للشعب والشخصية الرئيسة في الأسرَة هي شخصية الأب رئيس القبيلة، فبيت الأب هو الوحدة الرئيسة للقبيلة، والدين والاقتصاد يعتمدان على الأسرة، ورغم أن الأب هو الذي يقوم بكل شؤون الأسرة وهو رئيس البيت الذي يقرب القرابين ؛فالأم لها أهمية كبرى في تحديد مكانة القبيلة، والأسباط الإثنى عشر تنقسم على أساس الانتساب إلى "لئة" و"رحيل" وجاريتهما (زلفة) و (بلهة) ([١])"

١ – سوزان السعيد يوسف (٢٠٠٥) المرأة في الشريعة اليهودية؛ حقوقها وواجباتها (دراسة مقارنة مع حضارات الشرق الأدنى القديم) ط: أولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص: ٥٧.

وعليه فإن مدوني النص حريصون دوما على أركان هذه الأسرة وهو ما ظهر في تأريخهم للنص.

وبالطبع كان النبي موسى محظيًا بذات القدر من التوقير والقداسة عند مدوني النص، ولكنه حظي أيضًا بقدر من التجاهل عن الخطأ في مسألة (ماء مريبة) ويعاقب هارون وحده، إذ ينسب النصُّ الخطأَ لكليهما ولكن يأمر الرب موسى بأن يضم هارون إلى قومه لأنه لن يدخل الأرض، العدد ٢٠: ٢٣-٢٨ (كلم الرب موسى وهرون في جبل هور على تخم أرض آدوم قائلا ٢٤ يضم هرون الى قومه لأنه لا يدخل الأرض التي أُعطيت لبني إسرائيل لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة. ٢٥ خذ هرون والعازار ابنه واصعد بهما إلى جبل هور ٢٦ واخلع عن هرون ثيابه وألبس العازار إبنه اياها. فيُضم هرون ويموت هناك. ٢٧ ففعل موسى كما أمر الرب وصعدوا إلى جبل هور أمام أعين كل الجماعة. ٢٨ فخلع موسى عن هرون ثيابه وألبس العازار ابنه اياها. فمات هرون هناك على رأس الجبل. ثم انحدر موسى والعازار عن الجبل)

ولكن يُتجاهل موسى من هذه العقوبة، وذلك لأن موسى أهم من هارون ويروي الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج كيف أن هارون صنع بنفسه لقومه عجلًا للعبادة ولما عاد موسى كانت العقوبة الإلهية هي قتل ثلاثة آلاف من بني لاوي على هذه الفعلة الشنعاء ولكن هارون لم يتعرض النص له بشيء.

وقد يتساوى هارون بموسى إذا تعرض كلاهما للإساءة، فنجد أن كلّ من تذمر على إحدى الشخصيات الرئيسة فلابد وأن يعاقَب عقابًا أليمًا، كما حدث مع الذين تذمروا على موسى وهارون في سفر العدد ١٦: ١-٣ (وأخذ قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي وداثان وأبيرام إبنا الياب واون بن فالت بنو راوبين ٢ يقاومون موسى مع اناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوي إسم. ٣ فاجتمعوا على موسى وهرون وقالوا

لهما كفاكما. إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب. فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب)

والعدد ١٦: ٣١-٣٥ (فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم ٣٢ وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال. ٣٣ فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة. ٣٤ وكل اسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا لعل الارض تبتلعنا. ٣٥ وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور) (וַיְהִי, כְּכַלֹּתוֹ,
לְדַבֵּר, אֵת כָּל-הַדְּבָרִים הָאֵלֶּה; וַתִּבָּקַע הָאֲדָמָה, אֲשֶׁר תַּחְתֵּיהֶם. לב
וַתִּפְתַּח הָאָרֶץ אֶת-פִּיהָ, וַתִּבְלַע אֹתָם וְאֶת-בָּתֵּיהֶם, וְאֵת כָּל-הָאָדָם אֲשֶׁר
לְקֹרַח, וְאֵת כָּל-הָרְכוּשׁ. לג וַיֵּרְדוּ הֵם וְכָל-אֲשֶׁר לָהֶם, חַיִּים--שְׁאֹלָה;
וַתְּכַס עֲלֵיהֶם הָאָרֶץ, וַיֹּאבְדוּ מִתּוֹךְ הַקָּהָל. לד וְכָל-יִשְׂרָאֵל, אֲשֶׁר
סְבִיבֹתֵיהֶם--נָסוּ לְקֹלָם: כִּי אָמְרוּ, פֶּן-תִּבְלָעֵנוּ הָאָרֶץ. לה וְאֵשׁ יָצְאָה,
מֵאֵת יְהוָה; וַתֹּאכַל, אֵת הַחֲמִשִּׁים וּמָאתַיִם אִישׁ, מַקְרִיבֵי, הַקְּטֹרֶת)

وحينما يخطئ هارون ومريم بحق موسى فإن مريم وحدها هي التي تعاقَب: العدد ١٢: ١-٢ (وتكلمت مريم وهرون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها. لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية. ٢ فقالا هل كلم الرب موسى وحده. ألم يكلمنا نحن أيضا. فسمع الرب)

والعدد ١٢: ٩-١١ (فحمي غضب الرب عليهما ومضى. ١٠ فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج. فالتفت هرون إلى مريم وإذا هي برصاء. ١١ فقال هرون لموسى اسالك يا سيدي لا تجعل علينا الخطية التي حمقنا واخطانا بها)

يتضح مما سبق أن مدوني نص العهد القديم كانوا مستعدين لفعل أي شيء في سبيل إخراج الشخصيات الأصلية والأركان القوية في تاريخ الديانة

والشعب وفقًا لأبهى حُلَّةٍ ممكنة حتى وإن تفاضلت فيما بينها، إلا أنه يبقى لمجموع الطبقة خصوصية مرعية في العرض والتداول والنقاش على مدار النص المقرائي.

الطبقة الثانية: ويتصدر هذه الطبقة آدم أبو البشر وحواء ويشوع بن نون خادم موسى وأبناء يعقوب جميعًا وداوود وسليمان.

وهذه الطبقة لم ترُكز الروايات على ذكر بطولات لهم أو محاولة استدعاء صورة ملائكية لطيفة لتاريخهم، كالطبقة السابقة ولكن في ذات الوقت تتجاهل أو تسوغ أخطاءهم الشنيعة، ومثالًا لذلك ما نراه من معالجة النص لصنيع إخوة يوسف به وكذبهم على أبيهم، فلم يذكر لهم أي عقوبة على مدار النص، رغم أن غيرهم أَتى بأقل مما فعلوا وتعمد النص إبراز الخطأ والعقوبة.

ويلاحَظ في هذه الطبقة حرص المدونين على سلامة أنسابها وإعلان ذلك قدر المستطاع تنزيها لهم عما يمكن أن يلحقهم من نقد لأصولهم، فيهوذا بن يعقوب يضاجع كِنَّته (ثامار) وينجب منها ابنه (فارص) ولم يعاقَب أحدهما رغم وضوح نص العقوبة في سفر اللاويين ٢٠:١٢

(وإذا اضطجع رجل مع كنته فإنهما يقتلان كلاهما. قد فعلا فاحشة. دمهما عليهما) إلا أن شيئًا لم يحدث، بل إن ابنه فارص من ثامار يصبح مضرب المثل في الدعاء بالبركة رغم أنه إبن زنا، فيورد سفر راعوث ٤: ١١-١٢ (فقال جميع الشعب الذين في الباب والشيوخ نحن شهود.فليجعل الرب المرأة الداخلة غلى بيتك كراحيل وكليئة اللتين بنتا بيت إسرائيل.فاصنع ببأس في افراتة وكن ذا إسم في بيت لحم. ١٢ **وليكن بيتك كبيت فارص الذي ولدته ثامار ليهوذا من النسل الذي يعطيك الرب من هذه الفتاة**) (וַיֹּאמְרוּ כָּל-הָעָם אֲשֶׁר-בַּשַּׁעַר, וְהַזְּקֵנִים--עֵדִים; יִתֵּן יְהוָה אֶת-הָאִשָּׁה הַבָּאָה אֶל-בֵּיתֶךָ, כְּרָחֵל וּכְלֵאָה אֲשֶׁר בָּנוּ שְׁתֵּיהֶם אֶת-בֵּית יִשְׂרָאֵל, וַעֲשֵׂה-חַיִל בְּאֶפְרָתָה, וּקְרָא-שֵׁם בְּבֵית לָחֶם. יב וִיהִי **בֵיתְךָ כְּבֵית פֶּרֶץ, אֲשֶׁר-יָלְדָה תָמָר**

לִיהוּדָה--מִן-הַזֶּרַע, אֲשֶׁר יִתֵּן יְהוָה לְךָ, מִן-הַנַּעֲרָה, הַזֹּאת) ومن الجدير بالذكر أن حظ يهوذا من نبوءة أبيه التي بشر بها أبناءه قبل موته رغم ما فعل؛ أتت في خمس فقرات وعلى نحو إيجابي ومبشر.

ورؤوبين بن يعقوب يضاجع بلهة سرية أبيه ويعلم يعقوب بالأمر ولكن الحادثة مرت كأن شيئا لم يكن، باستثناء نبوءة وردت في تك ٤٩:٣ كانت أقل من الجرم المرتكب، تك ٢٢:٣٥ (وحدث إذ كان اسرائيل ساكنا في تلك الارض، ان رؤوبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل. وكان بنو يعقوب اثني عشر)

وعقوبة هذا الجرم ثابتة بنص سفر اللاويين ١١:٢٠ (وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه. إنهما يقتلان كلاهما. دمهما عليهما) ولكن شيئا لم يحدث، وتجاهلَ النص المقرائي ما كان ينبغي فعله في مثل هذه الحالات، والذي طبقه في غير هذه المواضع.

وفي حالة آدم وحواء أصل النسل البشري، فإنهما قد ارتكبا خطأ أساسيا وهو الأكل من شجرة معرفة الخير والشر النابتة بوسط الجنة حيث انطلت على حواء خديعة الحية أَحْيَل الحيوانات، ونصحت آدم بمعصية أمر الرب فيها، وكان يقص علينا الإصحاح الثالث من سفر التكوين عقوبة آدم، حيث يرد بالتكوين ٣: ١٧-١٩ (وقال لآدم: «لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا: لا تأكل منها، ملعونة الارض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. ١٨ وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. ١٩ بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الارض التي أخذت منها. لأنك تراب، وإلى تراب تعود)

وحكاية سقوط آدم على هذا النحو مريبة إلى حد كبير " ذلك أن الإله وفقا لهذه القصة قد نفس على الإنسان امتلاكه للمعرفة والخلود معا، ورغب في أن يستبقي هذه الصفات الطيبة لنفسه...وإن الدافع الذي تقدمه القصة دنئ كما

أن السلوك الذي تنسبه للرب يستحق الازدراء وفضلا على هذا، فإن كلا من هذا الدافع وذلك السلوك يتناقض مع سلوك الرب إزاء الإنسان في بداية الأمر كما صورته القصة، فقد كان الرب بعيدا كل البعد عن أن ينفس على الإنسان شيئا بل إنه بذل كل ما في وسعه لكي يجعله سعيدا هانئا(١)" ورغم ذلك يورد له النص خاتمة لا بأس بها وتتضمن معاني البركة والنماء، تك ٥: ١-٢ (هذا كتاب مواليد ادم، يوم خلق الله الانسان. على شبه الله عمله. ٢ ذكرا وأنثى خلقه، وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق)

وهي عادة المدون في النص عند تأريخه لأعلام الطبقة الثانية أنه يتجاهل رموزها بما اقترفوه، في حين أنه يُسوغ الذنب والعقوبة الأقل جرمًا وضررًا لغيرهم إذا كان من غير الشخصيات ذات الدور البطولي في تاريخ الدين والشعب.

وداوود يضاجع زوجة المقاتل الصالح (أوريا الحثي) ويقتله عمدًا ليحظى بزوجته، فيورد سفر صموئيل٢ ١١: ٤-٦ (فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. ٥ وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى. ٦ فأرسل داود إلى يواب يقول أرسل إلي أوريا الحثي. أرسل يواب أوريا إلى داود) (וַיִּשְׁלַח דָּוִד מַלְאָכִים וַיִּקָּחֶהָ, וַתָּבוֹא אֵלָיו וַיִּשְׁכַּב עִמָּהּ, וְהִיא מִתְקַדֶּשֶׁת, מִטֻּמְאָתָהּ; וַתָּשָׁב, אֶל-בֵּיתָהּ. ה וַתַּהַר, הָאִשָּׁה; וַתִּשְׁלַח וַתַּגֵּד לְדָוִד, וַתֹּאמֶר הָרָה אָנֹכִי. ו וַיִּשְׁלַח דָּוִד, אֶל-יוֹאָב, שְׁלַח אֵלַי, אֶת-אוּרִיָּה הַחִתִּי; וַיִּשְׁלַח יוֹאָב אֶת-אוּרִיָּה, אֶל-דָּוִד) ورغم ذلك يرزق منها بسليمان الملك، ويذكر سفر الملوك الأول ٣:٦ ثناءًا كبيرا على داوود (فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب

١ – جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ت: د/ نبيلة إبراهيم، مراجعة: د/ حسن ظاظا (١٩٧٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج: ١، ص: ٥٠.

معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته إبنا يجلس على كرسيه كهذا اليوم) بل إن المدون يبرز سفرا كاملا وهو سفر راعوث للإشارة إلى صحة نسب داوود بن يس.

ومما تجب الإشارة إليه: أن المدون لم يكن شغله الشاغل إبراز قيمة الشخصية في حد ذاتها فقط، بل أيضا تجاوز بركتها وقيمتها إلى مَن كانوا يتعاملون معها، فإننا نرى أن يوناثان بن شاؤول خالف أمر الرب مخالفة صريحة تستوجب القتل، ولكنه لما كان سببا في الانتصار على الفلسطينيين افتداه الشعب فلم يُقتل، ولكن الأهم أنه كان على مدار النص وفي أحلك لحظات العداء والاستهداف بالقتل من أبيه شاؤول لداوود، كان يوناثان حينها ودومًا يحب داوود ويسعى في إنقاذه، فكان لزاما أن تبرزه الدراما النصية للمادة المقرائية بصورة المنتفع بمحبة داوود وإخلاصه له، تركيزا على مقام داوود نفسه، فيرد في سفر صموئيل الأول ١٤:٤٣ (فقال شاول ليوناثان أخبرني ماذا فعلت.فأخبره يوناثان وقال ذقت ذوقا بطرف النشابة التي بيدي قليل عسل فهانذا أموت) وهنا نلاحظ أن شاؤول سمع للشعب في العفو عن يوناثان ولم يغضب الرب ولم يذكر النص شيئا من هذا.

وفي ذات الوقت عوقب شاؤول بسلب الملك منه ومن بيته بسبب سماعه للشعب وعفوه عن أجاج ملك الفلسطينيين وقد أُمر بقتله.

"فالملك داوود هو النموذج اليهودي للملك الشرعي، ورغم كونه إنسانًا معيبًا إلا أن نموذجه في القيادة والتقوى؛ نمَّى تقليدًا مفاده أن المسيح المخلص سيأتي من نسله (١)" وهذا هو عين ما يفعله مدون المقرا من حيث التماس الأعذار لكل مخالف طالما أنه يخدم الشعب والتاريخ والديانة وطالما أنه يتميز بعلاقات طيبة مع إحدى الشخصيات صاحبة دور البطولة في تاريخ الجماعة،

1 - SARA KARESH & MITCHELL M. HURVITZ (2006) ENCYCLOPEDIA OF JUDAISM FACTS ON FILE InfoBase publishing New York p: 107.

ولو كان على حساب العدالة الإلهية أو على حساب أدبيات المقرا المعتادة في التعامل مع مثل هذه الحالات.

وسليمان يتزوج من نساء أجنبيات ويميل قلبه مع إرضاءهن لآلهة بلادهن ويسمح بإقامة المعابد الوثنية، ولكنه مع ذلك يُذكر بخير من حيث الخاتمة وتُفرد لسيرته مساحة طويلة من الإصحاحات على مدار أسفار عديدة ويُصور عهده على أنه من أزهى وأقوى وأفضل عهود إسرائيل.

بل إن بعض العلماء يرفعه وأباه داوود إلى حيث مراتب أخلاقية علوية، ويمكن القول إنه أوتي درجة من درجات القديسية يفسرها موسى بن ميمون في حديثه عن مراتب النبوة فيضع سليمان في المرتبة الثانية في مجموع أعلاه المرتبة الحادية عشرة ويوصف هذه المرتبة الثانية بقوله «هي أن يجد الشخص كأن أمرًا ما حل فيه وقوة أخرى طرأت عليه فتُنطقه، فيتكلم بحِكم أو تسبيح أو بأقاويل عظيمة نافعة، أو بأمور تدبيرية أو إلهية، وهذا كله في حال اليقظة وتصرف الحواس على معتادها، وهذا هو الذي يقال عنه أنه مدبر بروح القدس وبهذا النحو من روح القدس أَلّف داود المزامير وألف سليمان الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد...فلذلك نبهتك أن هذا النحو من النبوة الذي أتى دانيال وسليمان وإن كان رؤى فيه ملك في الحلم فإنهما لم يجدا في أنفسهما أن تلك نبوة محضة بل حلم ينبئ بحقيقة أمور، فهو من قبيل من يتكلم بروح القديس وهذه هي المرتبة الثانية... وهؤلاء أيضًا كلهم يتسمون أنبياء بعموم(١)"

ومرجع ذلك فيما يبدو أن المدون كان يعنيه بالأساس القيمة السياسية والعسكرية لهذه الفترة في تاريخ إسرائيل ولذلك حظي داوود وسليمان بقيمة كبيرة توازي ما تعامل به المدون مع أبناء يعقوب أحد الأركان الأساسية لتاريخ الشعب، وأما يشوع بن نون؛ فيمكن توصيفه على قائمة هذه الطبقة، ذلك أنه دون مستوى الطبقة الأولى من حيث الأهمية والدور الذي لعبه، ولكنه يستوي

١ – موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي (٢٠٠٨م). دلالة الحائرين، عارضه بأصوله العربية والعبرية د/ حسين أتاي، مكتبة الثقافة الدينية ط ٢، القاهرة، ص٤٣٥، ٤٣٩.

على قمة الطبقة الثانية، فلم يُؤْثَر عنه ارتكاب أعمال منافية للعقيدة أو الأخلاق، بل كان مطيعا لأوامر الرب وخادما أمينا موسى للدرجة التي أهلته لقيادة الشعب تنفيذا لوعد الرب لإبراهيم بدخول أرض كنعان. وجميع أعلام هذه الطبقة؛ حالهم كحال يشوع بن نون إلا أن يشوع فاقهم في صحبته لموسى واختيار الرب له قائدا للشعب في دخول الأرض "وقد اعتبر عمله مكملا لعمل موسى، ولكي يأخذ في عيونهم نفس القدسية؛ رووا أنه تلقى بركة موسى من يده قبل موته (١)" ولهذا فاقهم جميعًا.

الطبقة الثالثة: نوح ولوط وعامة أنبياء بني إسرائيل الصادقين مثل: زكريا وحزقيال وعاموس وناحوم وعزرا وميخا ويونا وحبقوق ودانيال وخلدة النبية ودبورة النبية وإلياهو ومَن على مثالهم.

ويلاحظ في سيرتهم أنهم وقع عليهم الاختيار ليبلغوا الشعب في أزمنتهم إرادةَ الرب من حيث الرضا أو الغضب واستقاموا وفق ما طُلب منهم، ولم يقصروا في تبليغ مرادات الرب من الشعب، فكل فضيلتهم هي الاستقامة والالتزام بما أمرهم الرب وفقا لما أورده النص، لكنهم لم يحظوا بالوجود في بدايات زمن إنشاء الديانة أو التاريخ حتى يكونوا ركنا ركينا من أعمدة تاريخ الشعب والديانة كما هو الشأن في تاريخ الآباء وتاريخ موسى وهارون.

"والوظيفة الدينية هي العمل الأساسي للأنبياء، وقد كان تكرار ظهور الأنبياء في بني إسرائيل يعود إلى الحاجة الدينية المستمرة نظرا لطبيعة جماعة بني إسرائيل من ناحية وطبيعة التاريخ الإسرائيلي من ناحية أخرى، قد دأبت هذه الجماعة على النكث بعهودها مع الله والانحراف عن العبادة الصحيحة مما استدعى توالي ظهور الأنبياء فيهم لإعادتهم إلى الدين الصحيح(٢)" وسيرة المقرا توضح أنه ليس أحد بخلاف أعلام الطبقة الأولى بمنأى عن النقد

---

١ – حسن ظاظا (١٩٧٥) الفكر الديني الإسرائيلي؛ أطواره ومذاهبه، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، ص: ٢٧.

٢ – محمد خليفة حسن (٢٠٠٢) تاريخ الديانة اليهودية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ص:

القاسي ، ولذلك فإنه يمكننا القول أنه لو بدرت منهم أخطاء لعاملهم مدونو النص معاملة الطبقة الرابعة وذلك وفقا لمنهجه في تأريخه لسِيَر أعلام النص.

وأما لوط فإن النص لم يثبت له إساءة وكان رفيقا كريما لإبراهيم في رحلته، باستثناء بعض الأحداث بين عبيد كل منهما والتي لا تشوه علاقتهما بشيء، اللهم إلا مسألة طلب إبراهيم من لوط أن يفترقا حفاظا على لُحمة الرحم بينهما بعد تنافر عبيدهما؛ جعلت مدون النص يستشعر من خلالها زُهدا من إبراهيم في مرافقة لوط له، ووفقا لمنهجه في الاستشعار عن بُعد انتصارا وحميّة لأعلام الطبقة الأولى فقد أورد لوطًا هذا المورد حين وَصَم جدول أنسابه بما كان بينه وبين ابنتيه على غفلة منه، إضافة لكراهية مدوني النص لشعبي عمّون ومؤاب ورغبتهم في تشويه جذورهما جعلتهم لا يجدون سوى شخصية لوط للعب دور البطولة غير المقصودة في نسبة النجاسة والدنس إلى أصل وجودهما، فابتكروا قصة خديعة ابنتي لوط لأبيهما فسقتاه خمرًا وضاجعتاه في غيبة عقله، وأنجبتا منه ولدين هما عمون ومؤاب جَدَّي الشعبين، أي أنه أراد أن ينسب الشعبين إلى أصل حرام غير طاهر.

الطبقة الرابعة: وتضم هذه الطبقة؛ أبناء آدم وأحفاده وأحفاد يعقوب المباشرين، والشخصيات العامة في بني اسرائيل على مدار النص.

وهؤلاء يعامَلون معاملة عادية على قدم المساواة في غالب الأحيان، ويتصف منهج المقرا لهذه الطبقة بالسرد الاعتيادي الموزون للأحداث دون تكلف، إلا فيما يخص ناحية الحبكة الدرامية، إذ نلاحظ أن غالب أعلام هذه الطبقة ليس لهم دور مؤثر أو ملحوظ في تاريخ الديانة أو الشعب، ولكن أهميتها في مجمل النص المقرائي هي كونها شخصيات ثانوية يساعد وجودها في إكمال المشهد أدبيا وعقديا وتشريعيا ويعامل المدونون أعلام هذه الطبقة بعدالة؛ أي إذا حَسُنَ فعله فإنه يذكر في المقرا بخير وإذا أساء فيذكر بشر وإساءة ولعنات ووعيد، ومن أمثلة أعلام هذه الطبقة؛ قايين وهابيل ابني آدم، فقد ارتكب قايين ظلما جريمة القتل الأولى فاستحق معها اللعنة الواردة في التكوين ٤: ١١-١٢ (فالآن ملعون أنت من الارض التي فتحت فاها لتقبل دم

أخيك من يدك. ١٢ متى عملت الارض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الارض)

وابنا هارون (ناداب وأبيهو) كانا قد ذُكرا مرارا على محمل الخير وفي مواضع التكريم؛ حيث الصعود مع موسى وهارون وشيوخ اسرائيل ليسمع موسى من ربه، وغيره لكنهما لما قربا أمام الرب نارا غريبة لم يأمرهما بها فقد عاقبهما الرب بالإحراق؛ لاويين ١٠: ١-٢ (وأخذ ابنا هرون ناداب وأبيهو كلا منهما مجمرته وجعلا فيهما نارا ووضعا عليها بخورا وقربا أمام الرب نارا غريبة لم يأمرهما بها. ٢ فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب)

وجدعون بن يوآش الذي كان مطيعا للرب وذُكر بخير في القضاة من الإصحاحات السادس حتى الثامن، إلا أنه بعد أن صنع أُفودًا وزنى كل اسرائيل وراءه، و الأفود في الأصل هي رداء يصنع من الكتان يصنع وفق مواصفات معينة، يرتديه خدم الهيكل والكاهن الأكبر، ولكنه أحيانا يستخدم " كأداة أو وسيلة عبادة يمكن أن تنصب أو تثبت وربما المقصود بذلك بعض الأصنام وكانت مصنوعة من ذهب وتستخدم لاستلهام الوحي الإلهي([١])" ويذكر النص أنه كان فخًا له ولأهل بيته، قضاة ٨: ٢٦-٢٧ (وكان وزن أقراط الذهب التي طلب ألفا وسبع مئة شاقل ذهبا ما عدا الأهلة والحلق وأثواب الأرجوان التي على ملوك مديان وما عدا القلائد التي في أعناق جمالهم. ٢٧ فصنع جدعون منها أفودًا وجعله في مدينته في عفرة وزنى كل إسرائيل وراءه هناك فكان ذلك لجدعون وبيته فخا)

وغيره من الشخصيات مثل رحبعام بن سليمان وآخاب بن عمري ملك اسرائيل وأبيمالك بن يربَّعل وإيزابل زوجة آخاب.

---

١ – سامي الإمام، الفكر العقدي اليهودي؛ موسوعة الجيب، بدون بيانات نشر، ص: ٥٤.

الطبقة الخامسة: وتضم الأنبياء الكذبة والشخصيات المرذولة والشخصيات المجهولة.

ومن عادة مدون المقرا أحيانا أنه حين يؤرخ لشخصية شريرة في غالب حياتها ولم تقدم أي معروف للشعب أو التاريخ أو الديانة فإنه يتعامل معها بذكر الحوادث المتعلقة بها دون ذكر أسمائهم، ولعله يقصد من وراء هذا التهوين من شأنهم والسخرية منهم، مثل الأنبياء الكذبة الذين يتنبؤون بالكذب وقد ورد ذكرهم مرارا في أسفار الملوك الأول: ص ١٨ وارميا ٢٣و٢٧ وحزقيال ١٣ وغيره.

ونجد النص المقرائي حينما يريد في بعض الحالات أن يُشرع لتجريم فعلٍ ما؛ فإنه يورد قصةً بطلها مجهول من أحد الأطراف فإما أن يكون اسمه هو مجهولا مثل حادثة المُجدف على إسم الرب فيذكره أنه إبنُ مصري وأمه يهودية فقط دون ذكر اسمه، لاويين ١٠:٢٤ (وخرج ابن امرأة اسرائيلية وهو ابن رجل مصري في وسط بني اسرائيل وتخاصم في المحلة ابن الاسرائيلية ورجل اسرائيلي) وفي سفر العدد ورد الرجل الذي احتطب يوم السبت فقُتل، عدد٣٢:١٥ (ولما كان بنو اسرائيل في البرية وجدوا رجلا يحتطب حطبا في يوم السبت. ٣٣ فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطبا إلى موسى وهرون وكل الجماعة. ٣٤ فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به. ٣٥ فقال الرب لموسى قتلا يقتل الرجل. يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة. ٣٦ فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى)

وعلى هذا النحو في سائر النص المقرائي يسير المدون في تقسيم أعلام العهد القديم، وأحسب أن كل شخصية وردت في النص لا تخرج عن كونها تندرج تحت طبقة من هذه الطبقات الخمس، كلٌ حسب مكانتها وقيمتها من التاريخ والديانة وما قدمه للشعب، ولا يضره أنه تأخر به زمنه أو تقدم.

المبحث الثاني: تأريخ الخصوم في العهد القديم

وفقا لما سلف ذكره من منهج مدوني العهد القديم في تأريخهم لأعلام النص، فإنه من الملاحظ أنهم تتبعوا أيضا منهجا له سمات معينة حين يؤرخون لخصوم بني اسرائيل، ويمكننا تقسيمها إلى قسمين، حيث يؤرخون تأريخا عاما للشعوب المعادية لبني اسرائيل وتأريخا خاصا لخصوم طبقات أعلام النص.

وابتداءً من الإصحاح التاسع من سفر التكوين تبرز المشكلات النفسية لمدوني النص، حيث تتضح بجلاء النزعة العدائية للمدونين وتجردهم من الموضوعية في محاولتهم تشويه تاريخ كنعان بن حام بن نوح، إذ يخطئ كنعان الإبن الأصغر لنوح خطأً لا تبدو فيه شبهة تعمد الإساءة لأبيه فتنطلق اللعنات من نوح اتجاه كنعان لحساب أخويه حام وسام. تك ٩:٢٢ (فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجا. ٢٣ فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. ٢٤ فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، ٢٥ فقال: «ملعون كنعان! عبد العبيد يكون لإخوته». ٢٦ وقال: «مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدا لهم. ٢٧ ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم)

والأمر بداهة لا يستحق كل هذه اللعنات ولكن عادة المدونين هي اصطناع المشكلات المشوّهة للشعوب المخاصمة لبني إسرائيل، وهو ما تظهر معه تعقيدات بني اسرائيل القومية والإقليمية قديما؛ والتي كانت بالأصل سببا في خروج النص على هذا النحو التأريخي.

ولا يتوقف الأمر عند الكنعانيين والمؤابيين والعمونيين في قصة لوط وابنتيه، وإنما نجد في الخروج ٢٣:٢٣ (فإن ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين.فأبيدهم)

واللعنات المسبقة هنا تخص الأموريين والحيثيين والفرزيين وغيرهم، وفي التثنية يُفرَد العمونين والمؤابيون بأمر إلهي خاص فيقول تث ٣:٢٣ (لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب.حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد) ومن الملاحظ في النص أن النية مبيتة تجاه هذه الشعوب، فالوعيد يسبقهم حتى قبل أن يلتقوا بشعب إسرائيل وهو ما يدل على أن النص أعيدت كتابته بعد زمن طويل من وقوع الأحداث الحقيقية بحيث تكون المناوشات والحروب وقعت فعلا بينهم وبين بني إسرائيل.

ثم لما تمت إعادة تدوين النص، قام المدون بصورة نفسية بصب الويلات والثبور على رؤوس هذه الشعوب على اعتبار ما سيكون (تدوينا فقط) لأنه بالفعل قد كان وحدث ولكن النص هو المستحدث من حيث التدوين.

وأما من حيث منهج النص في التأريخ للأفراد من خصوم بني إسرائيل فإنه يلاحَظ أنه يتناسب تناسبًا طرديا مع مقدار درجة الخصومة التي تعامل بها هذا الفرد مع الشخصية الإسرائيلية التي خاصمها في المقرا؛ كلٌ حسب طبقته، بمعنى أننا نجد خصوم إبراهيم وهو الجد الأعلى وصاحب الوعد الإلهي بالتمكين في الأرض، حينما يتعامل معه أفراد من غير بني اسرائيل، فإن هؤلاء الأفراد إذا أحسنوا تحدث عنهم النص بلياقة وتقدير ولو كانوا على غير الدين الصحيح، وهي بالطبع الديانة اليهودية عند مدوني العهد القديم.

وليس ذلك إلا لأنه أحسن التوقير والتعامل مع رمز من رموز التاريخ اليهودي مثل مَلْكي صادق ملك أورشليم الذي كان يوادع إبراهيم فوصفه النص بأنه كان كاهنا لله العلي في (سفر التكوين ١٤) ويبدو من السياق أنه كان يحكم حكما دينيا، تقول التوراة، سفر التكوين ١٤/ ١٨ وملكيصدق (ملك شاليم) أخرج خبزا ونبيذا، وكان كاهنا لله العلي، وباركه وقال: مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض) فأورشليم القدس كانت مدينة مباركة من قبل

داوود بل من قبل إبراهيم أيضا (١)"

ولا ندري على أيّ دين كان وأي إله يقصد، ولنا أن نتخيل لو لم يهادن إبراهيم فماذا سيكون مصيره الذي سيصنعه له مدونوا النص المقرائي.

ولاريب أحيانا أن تلصق التهم الظالمة ببعض الأفراد ثم تبرئتهم وإفراغ ساحتهم، فقط من أجل صناعة أساطير وحكايا، تُحَكم من خلالها الحبكة الدرامية لرفع مقام ودرجة وقيمة الشخصية البطولية للتاريخ الإسرائيلي كما حدث مع فرعون وسارة زوجة ابراهيم، حيث ذكر ابراهيم أنها أخته، فأراد فرعون أن يتخذها لنفسه، فعاقبه الرب عقوبة قاسية ثم يشهد النص لفرعون أنه لم يكن يعلم وبنقاوة قلب فعل هذا ويصلي إبراهيم من أجله ويكرمه الرب بالعافية وأهل بيته من أجل صلاة إبراهيم، وذات الموقف يتكرر مع أبيمالك ملك جرار في الإصحاح العشرين من سفر التكوين ثم يشهد له النص بالبراءة وتُقبل فيه صلاة ابراهيم.

كل هذه الحكايا ساقها مدونوا النص ليس لأجل تشويه الخصوم في الطبقة الأولى بقدر ما هي رفع لمقام الشخصية المقصودة.

ويتكرر المنهج نفسه مع إسحق في علاقته وزوجته رفقة بملك جرار، وحتى عندما يكون الخلاف بين شخصيتين لهما ذات القيمة كسحاق وأخيه اسماعيل، فقد سلب المدونون بكورية إسماعيل لصالح إسحاق دون ذنب أو جريرة بمقارنة الروايات التي تتحدث عن كليهما نلاحظ الفارق بين القيمة المصطنعة لكل منهما، رغم أنهما أخوين وإسماعيل هو البكر وأضف إلى ذلك أن النص نفسه لم يَنسب لإسماعيل ما يشوه صورته على نحو يستحق العقوبة وسلب البكورية.

ولكن العلة من وراء هذا معلومة؛ وهي أن إسحاق هو أحد أركان

---

١ – حسن ظاظا (٢٠١٥) أبحاث في الفكر اليهودي، مكتبة الأسرة، مصر، ص: ١٨.

التاريخ والديانة أما اسماعيل فمن الممكن أن يكون منافسا من حيث القيمة لكونه الإبن البكر.

ونزولا إلى يعقوب فإننا نجد أن المنهج قد تأصل إلى حد أبعد في تأريخ سيرة يعقوب وخصومه، فيتكرر مع عيسو أخيه ذات الأخطاء حيث يحتال يعقوب لسلب بركة أخيه من أبيهما إسحق.

وعلى مدار النص فإن عيسو لم يرتكب جناية ولكن يجتهد النص في تشويه سيرته دون سبب واضح فيذكر في سفر ملاخي ١: ٢-٣ (أحببتكم قال الرب. وقلتم بم أحببتنا. أليس عيسو أخا ليعقوب يقول الرب وأحببت يعقوب ٣ وأبغضت عيسو وجعلت جباله خرابا وميراثه لذئاب البرية) وفي عوبديا ١: ٧-١١ (كيف فتش عيسو وفحصت مخابئه. ٧ طردك الى التخم كل معاهديك. خدعك وغلب عليك مسالموك. أهل خبزك وضعوا شركا تحتك. لا فهم فيه. ٨ ألا أبيد في ذلك اليوم يقول الرب الحكماء من أدوم والفهم من جبل عيسو. ٩ فيرتاع أبطالك يا تيمان لكي ينقرض كل واحد من جبل عيسو بالقتال ١٠ من أجل ظلمك لأخيك يعقوب يغشاك الخزي وتنقرض إلى الأبد)

وشكيم بن حمور الحوِّى في الإصحاح ٣٤ من التكوين يعتدي على (دينه) ابنة يعقوب فتلحقه وأهله عقوبة قاسية جدا وهي قتله وأهل مدينته، حتى إن يعقوب اعترض على هذه الفعلة التي ارتكبها إبناه.

وما ذلك إلا لأن الجناية تتعرض مباشرةِ لعِرض أصل التاريخ والديانة وهم أسرة يعقوب، وشخصية (لابان) شخصية بارزة في تاريخ يعقوب وقد أخلف عهده مع يعقوب مرارا إلا أن كونه جَدا لبني اسرائيل من ناحية ليئة وراحيل ابنتيه وكونه لم يعمد إلى يعقوب بفعل دنيء رغم ما فعل؛ فقد تعاملت معه الرواية بمزيد من اللطف والتجاوز حتى إن الروايات لتذكر آلهته وأصنامه موازية لذكر إله يعقوب دونما اعتراض عليها.

وعند التأريخ ليربعام بن ناباط وعلاقته بسليمان، فإنه قد أخطأ نفس الأخطاء التي اقترفها سليمان من حيث عبادة آلهة أجنبية ولكن لما كان النص

متحيزا لسليمان فقد جعل (يربعام) مضرب الأمثال في السوء ومنها هذا الموضع في سفر الملوك الثاني ٢٩:١٠ (ولكن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل اسرائيل يخطئ لم يحد ياهو عنها أي عجول الذهب التي في بيت إيل والتي في دان).

ولكن علة كراهية يربعام وتشويه تاريخه ليست في هذا الأمر بقدر ما يكشف النص التالي من سفر الملوك الأول ٢١:١٧ (لأنه شق إسرائيل عن بيت داود فملكوا يربعام بن نباط فأبعد يربعام إسرائيل من وراء الرب وجعلهم يخطئون خطية عظيمة) فانحياز مدونو العهد القديم لملكية ومملكة داوود وسليمان مما جعلهم ينظرون لخصومهم بعداء يوازي نقيض محبتهم لسليمان وداوود.

وفي بعض الأحيان يقحم النص بعض الشخصيات الثانوية في إطار قصص أسطورية من أجل الحبكة الدرامية وبغير داع؛ كما حدث مع بلعام بن بعور، والجدير بالذكر وفقا للنص الوارد في سفر العدد بالإصحاحات من ٢٣ حتى ٣١ فإن بلعام لم يخطئ ولم يخالف في شيء وإنما تحرك وفقا لأمر الرب له ولكنه في النهاية يقتل ويعاقب.

ولعل رغبة مدون النص في حشوه بقصص أسطورية وإثارة الفزع في نفس كل من يتعرض لبني اسرائيل (أو رغبة الرب وفقا لإرادة مدوني النص بأن يظل الرب يكرر على مدار النص المقرائي فضائله على بني إسرائيل وموضوع بلعام من الأمور التي تكرر ذكرها مرارا)

لعل تلك الرغبة هي السبب وراء هذه المدخَلات غير المنطقية والعرض التاريخي المجحف لبعض الأعلام والشخصيات، كما ورد بالتثنية ٢٣: ٥-٦ (ولكن لم يشأ الرب إلهك أن يسمع لبلعام فحول لأجلك الرب إلهك اللعنة إلى بركة لأن الرب إلهك قد أحبك. ٦ لا تلتمس سلامهم ولا خيرهم كل أيامك إلى الأبد)

وكالمعتاد من النص، فإنه عندما تكون الشخصية قدمت معروفا للديانة

والتاريخ والشعب فإن النص يتجاوز لها عن كل الرزايا الأخلاقية بل والعقدية كما حدث مع (راحاب الزانية) في سفر يشوع، فقد ساعدت يشوع وجنوده على دخول أريحا وأنقذت جواسيسه ولذلك صورها النص تصويرا لا بأس به.

وعلى مدار النص؛ تلك هي عادة مدوني النص في التأريخ للأعلام والشخصيات، سواء أكانوا من بني إسرائيل أم من خصوم بني إسرائيل.

المبحث الثالث: المنهج المقرائي، أسبابه ونواتجه

وقفت في المبحث السابق على قواعد المنهج المقرائي في تأريخ سير الأعلام، ولعل من أوضح أسباب انتهاج المدون المقرائي لقواعده هما عاملان، **العامل الأول:** مصادر تدوين النص المقرائي ، **والعامل الثاني:** الظروف السياسية والاجتماعية التي نشأ النص ودُوِّن في رَحِمِها.

فمن المعلوم للباحثين أن النص المقرائي تُدُوِل شفهيا لقرون متتالية، ثم تم تدوينه على مراحل متعددة، فيما أشار إليه الباحثون بنظرية المصادر، وأقدمها مصدران هما اليهوي والإلوهيمي ويليهما الكهنوتي والتثنوي، وقد نشأ كل مصدر من هذه المصادر في فترة زمنية سابقة على الآخرين حتى انتهت بآخرها المصدر التثنوي، فيؤرخ مثلا للمصدر اليهوي بالقرنين التاسع والعاشر ق.م، وله خصائص تميزه عن غيره فنجد أنه "يهتم بالربط بين الدين والقومية ... والثناء على انتصارات بعض ملوك بني اسرائيل والحماس السياسي والقومي"([1])

ثم المصدر الإلوهيمي الذي نشأ في مملكة اسرائيل الشمالية بعد انقسام المملكة الداوودية على أثر الخلاف بين رحبعام بن سليمان ويربعام بن نابط، ويبرز في هذا المصدر اهتمامه بالجانب الأخلاقي في حياة الشعب اليهودي

١ – محمد خليفة حسن (٢٠٠٢م) مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم، القاهرة، ص:٢٥.

"وسيطرة رؤية الأنبياء على نظرة المؤرخ الإلوهيمي الذي يصدر على بني اسرائيل أحكاما مشابهة لأحكام الأنبياء"([1])

ثم ظهر المصدر الكهنوتي في حوالي القرن السابع ق.م "ويهتم بأمور الهيكل وشعائر الذبح وعالم الكهنوت وقوائم الأنساب، وأخيرا يأتي المصدر الرابع في حوالي القرن الخامس ق.م والذي يعرف بالمصدر التثنوي ويعرض هذا المصدر التاريخ من وجهة نظر دينية، حيث يركز على فكرة العهد، فربط مصير ملوك بني اسرائيل بولائهم على الحفاظ على العهد مع الرب"([2])

وهذه المصادر بسماتها الخاصة لابد وأنها تركت أثرا جراء عملية إعادة تحرير النص لمرات متكررة، وكل مصدر منها يدون النص المقرائي وفقا لنظرته الخاصة وانطلاقا من الجوانب التي يركز هو عليها، فجاء النص أخيرا وحدة متراكبة من سياقات مختلفة ولكل سياق منها مصدره ومآلاته والتي تتفق مع الباقين في نقاط وتنفرد في نقاط أخرى.

هذا السياق المتمازج للروايات المختلفة يمثل صورة مستمرة على مدار النص المقرائي في غير قليل من موضوعاته، فما من قصة أو موضوع ذي بال إلا ويمكن الوقوف على تناقضات واستفهامات عند استعراض تفاصيله ودقائقه في تسلسل واحد متتابع، وأيما موضوع خلا من تناقض الروايات فلا تجده يسلم من مخالفة مستغربة لبعض قواعد التوراة كالذي نجد في قصة بكورية عيسو واحتيال رفقة وابنها يعقوب على أبيه اسحاق وأخيه حتى سلبها منه.

---

١ – المصدر السابق، ص:٢١.

٢ – شريف حامد سالم (٢٠١١م) المصدر اليهوي في التوراة، دراسة في المضامين التاريخية والدينية والسمات اللغوية، مكتبة مدبولي، ط: أولى، ص:٧.

"فيتابع الإصحاح (٢٧)-من سفر التكوين- قصة البكورية التي بدأت في الإصحاح (٢٥)، وهي هنا موزعة بين المصدرين اليهوي والإلوهيمي، فتنسب العبارات(١،١٢-١٤،٥-١٠ ،١٧،١٥،١٤...) إلى المصدر اليهوي وتبدأ بالحديث عن شيخوخة إسحاق ودعوته ابنه عيسو ليجهز له طعاما، وتسمع رفقة هذا الكلام فتتشجع يعقوب على أن يسرع هو ويحضر الطعام ليحصل على مباركة الأب... أما الرواية الإلوهيمية (١ب،٤ب،١١-١٣...)"([1]) وحق البكورية معلوم في اليهودية ومنصوص عليه في متواترات الديانة وليس من داع لمخالفته والاحتيال لأجله وسلبه من أخيه على هذا النحو الماكر، على الأخص من شخصية كيعقوب الذي سيحمل على عاتقه بعد ذلك أعباء كونه ركنا ركينا من تاريخ الديانة.

وهو الذي من المفترض أن يكون على نحو أكثر مثالية ونزاهة على تأسيا بالذي كان عليه من قبل أبواه إبراهيم وإسحاق. "فما فعله يعقوب يتعارض بطريقة غير مستحبة مع الوقار الذي اتسم به جده ابراهيم، كما يتعارض مع الورع التأملي الذي اتسم به أبوه إسحاق، فإذا كان إبراهيم يُعد مثالا للتاجر السامي اللين الحذق والوافر الحيلة، الذي يحرص على المكسب...دون ان يتردد كثيرا في اختيار الوسائل التي يبتز بها منافسيه"([2])

ولا يبدو أن هناك سببا أصيلا لتقديم يعقوب على أخيه عيسو وكسر قاعدة نظام وراثة الإبن الأكبر المعروف (بحق البكورية) فعيسو لم يرتكب جرما ينحيه، وكان يحظى برضا أبيه إسحاق لولا التدابير الماكرة، وهو ما يوحي بأن القصة قد تكون دونت بالفعل بعد زمن حدوثها بمدة غير قصيرة في رأى كثير من الباحثين، فنظر الكاتب خلفه زمنيا حيث تاريخ البكورية، فسبكها

---

١ - أحمد محود هويدي، تاريخ الآباء وديانتهم، رؤية نقدية في ضوء نظرية مصادر التوراة، مصدر سابق، ص:١٨٩.

٢ - جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ت: د/نبيلة ابراهيم، مصدر سابق، ص:٢٥٨.

في إطار درامي لا يخلو من أثر الطبيعة النفسية للكاتب ذاته.

وعلى نفس النسق يسير الكاتب المقرائي في غير موضع فنجده في (التكوين ٩: ٢-٢٥) يصب على رأس كنعان بن حام بن نوح وابلا من اللعنات الأبدية لا لشيء إلا لأنه ابن حام الذي كشف عورة أبيه.

"وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجا، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافها ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته".

وهنا يبرز السؤال ما شأن كنعان بما فعله أبوه؛ وما جنايته؛ أليس منافيا للعدالة أن يذنب الأب ويتحمل الابن كامل الإثم؟

والإجابة على هذا السؤال تندرج تحت استدلالين، الأول: أن هذه الرواية يهوية المصدر على ما ذهب إليه باحثو نقد المقرا، والمصدر اليهوي معروف ببساطة وسذاجة حبكته الروائية وترجع هذه البساطة في أسلوب المصدر اليهوي "لأنه يشكل نقطة الانطلاق التاريخية من دائرة الخرافة والمأثور الشعبي للتاريخ، ثم حولها إلى تاريخ أدبي...فالتاريخ عنده يتحرك نحو هدف محدد منذ بداية العالم وحتى اختيار إسرائيل"(١).

الثاني: أنها هي ذات النظرة الورائية المعلقة على التاريخ، وعلى أحداث مرت وانقضت، أراد الكاتب أن يصوغها وفق أحداث زمانه.

فكأن الكاتب قد مرَّ عليه زمن الخلافات بين بني اسرائيل والكنعانيين والحروب التي قامت بينهم، فصاغ هذا السفر الديني التاريخي بما يخدم أهدافه منذ القدم فيبرز الكنعانيين على أنهم ملعونين منذ الأزل وأن بني اسرائيل

١ – أحمد محمود هويدي، تاريخ الآباء وديانتهم، مصدر سابق، ص:٢٠٣.

سينتصرون عليهم لا محالة لأن الكنعانيين وقعوا منذ البدايات في براثن اللعنة المقدسة على لسان نبي من الأكابر.

وهنا نرى أن الأمر لا يخلو من أثر نفسي خاص بطبيعة كاتب النص ذاته؛ فإذا كان هناك استقرار بين الباحثين وعلماء المقرا على وقوع عمليات تحرير وإعادة تدوين للنص، فلاريب أن ثمة تدخلًا بالحذف والإثبات وإعادة كتابة الرواية من وجهة نظر المحرر قد وقعت، ولابد أن ثقافة المحرر وظروف نشأته وقدراته اللغوية والأدبية كان لها تدخل وأثر لا يخفى، ويمكن الوقوف عليه وتتبع علاماته.

ذلك أن "عملية قراءة أي كتاب سواء كان أدبًا رفيعًا أو كتابًا للاطلاع؛ هي عملية لقاء مع المؤلف، نلتقي في قراءتنا للعهد القديم...ونلاحظ أن معظم القراء يجدون علاقة وطيدة بين حياة المؤلف وبين العالم الذي يصوره في كتابه، ففي مجال الأدب الرفيع على سبيل المثال يلاحظ الكثيرون شيئا ما في كَون (دستوييفسكي) روسيا عاش في القرن التاسع عشر وأنه كان مسيحيا أرثوذوكسيا له آراء ثورية تجديدية... وأن الشخصيات المتصارعة في أعماله (الأبله والأخوة كرامازوف) تنعكس في كتاباته... كذلك في الكتب الثقافية الأخرى نرى أمرًا مثيرًا في حياة (سيجموند فرويد) وهو أن تجربته الشخصية قد أثرت على رسائله وانعكست فيها"(١)

ومن هنا يتضح أن تعدد مصادر تدوين النص المقرائي كان سببا أصيلا في خروج المنهج المقرائي لتأريخ الأعلام على النحو الذي ورد في النص.

إضافة إلى أن منهج المؤرخ التوراتي منهج انتقائي، كمن يتنقل بين جزر منعزلة، بالكاد يستطيع أن يشير إليها بإحصاءٍ يجمع أطرافها، فعيناه

---

١ – ريتشارد اليوت فريدمان، من كتب التوراة، ت: عمرو زكريا، مصدر سابق، ص:١٦.

منصبتان على نقاط محددة في تاريخ الشعب والديانة ولا يلتفت إلى غيرها إلا من ومضات متناثرة "يتوازى أيضا مع هذا القحط في الإشارات غياب مماثل على الجانب التوراتي لأي إيماءات محددة تشي بمعرفة ما، سواء بمصر أو بالمشرق خلال الألف الثاني ق.م...وليس هناك أي كلمة عن جزية ثقيلة أو تبادل ثقافي...وسفرا التكوين والخروج يجدان الفلسطينيين philistines وقد استقروا في الأرض في زمن أبراهام...فإننا لا نجد مفرا من الاستنتاج بأن كتبة التوراة في القرنين من السابع إلى السادس ق.م افتقروا إلى معرفة دقيقة بمصر، التي لم تكن لتفصلها عنهم وقت ذاك سوى بضعة أجيال قليلة وحسب...حقيقة الأمر أن كتبة التوراة كانوا غير واعين بصورة كاملة وسعادة غامرة بالتناقض الهائل بين تاريخهم history وتأريخهم chronology (١)"

وغير خاف أن النص المقرائي هو مادة دينية في إطار تاريخي تختص بحالة أمة بعينها، وقد يقول رأي؛ بأن هذا مسوغ لانحسار المقرا في نطاق يختص بهذه الأمة ، ولكن يُرد على هذا بأن المقرا دائمة الاستشهاد بالتاريخ المحيط في إطار الاستدلال على الفكرة التي يعنيها النص في كل موضع، وهذا الاستدلال في مواضع كثيرة جاء منقوصا مبتورا، لأنه أُريد به عموم الاستشهاد وليس خصوصية الدلالة، مع الأخذ في الاعتبار أن الكاتب المقرائي يكتب في المقام الأول لفئة المؤمنين به أصلا؛ فازداد جراءة في سلوك منهجه؛ لأنه ببساطة في ذلك الزمن البدائي لا يعنيه إيمان مَن خالفوه.

والعامل الثاني: وهو الظروف السياسية والاجتماعية، إذ أن تاريخ بني اسرائيل نشأ في ظل ظروف الشرق القديم القديم بصراعاتها البدائية وحكاياها الأسطورية، وكان تضخيم كل مملكة ودولة من الدول المحيطة بهم لآلهتها ورموزها التاريخية وإظهار قوتها في تعاملها مع أعداءها، لعل كل ذلك كان

---

١ – دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ت: بيومي قنديل (٢٠١٥) المركز القومي للترجمة، مصر، ص: ٣٩١.

سببا في أن المدونين المقرائيين وفقا لمصادر تحرير النص المتعددة تأثروا بها وأرادوا أن يصنعوا لبني جنسهم تاريخا مشابها من حيث قداسة الآباء المؤسسين ومن حيث عظمة الملوك البارزين والقسوة على الخصوم حسبما تقتضي الظروف، أي أن مدوني النص أرادوا صناعة تاريخ تعيش الأمة الاسرائيلية على أساسه، فيجدون مادة عجائبية وتاريخية توفر مكانا مرموقا ومهيبا في الشرق القديم.

ورواية المقرا المثيرة للتساؤلات؛ لتاريخ اسرائيل في إطار أحداث الشرق القديم أدت أحيانا إلى رفض بعض الأسفار واعتبارها غير قانونية، وذلك لما اشتملت عليه من مادة مثيرة للجدل عقديا أو تشريعيا أو تاريخيا، مع الأخذ في الاعتبار الخلافات الداخلية بين الفرق اليهودية ذاتها والتي عاد اختلافها فيما بينها بأثره المباشر على طبيعة العبادات والتشريعات "فالاختلاف بين الفريسيين والصدوقيين حينما اعتلى جون هيركانوس (١٣٥-١٥٠ ق.م)العرش نتج عنه إدخال الفريسيين لكثير من الاحتفالات التي لم تدون في شريعة موسى"(١)، وعليه فلا يستبعد أن تكون هذه الظروف مجتمعة ألجأت مدوني النص إلى السير في اتجاه مقصود من حيث تدوين السير والرغبة الجامحة في إبراز صورة معينة ومقصودة عن أعلام وسير النص المقرائي.

نواتج المنهج المقرائي لتأريخ الأعلام:

بدا مما سبق أن مدوني النص المقرائي عمدوا إلى إظهار سيرة النص وأعلامه وفق رؤية مقصودة، وأن توالي تدوين النص من قبل مجموعات مختلفة فكريا وزمنيا، أظهر عوارا يقدح في وحدة مصدرية النص، وذلك رغم أن عملية التحرير الأخيرة حاولت جاهدة إثبات صفة التناغم والانسجام للنص من حيث العرض الديني والتاريخي، إلا أن المنتج النهائي يتأبى على ذلك،

١ – ألان كوري، فهم التلمود، ت: سامي الإمام، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠١٧م، ص:١١٤.

وكان من ثمرة هذا المنهج المقرائي تشويه صورة الإله وإظهاره في غير موضع بصورة غير العادل فهو يتفاعل بحمية وعاطفية مع أعلام الطبقتين الأولى والثانية منزها لهم عن النقائص ومتجاهلا عما اعتبره في حق غيرهم خسائس وبجراءة شديدة لا تليق بصورة إله عادل، والأمثلة كثيرة في هذا الباب، مثل ما حدث مع إبراهيم وفرعون وإبراهيم وأبيمالك وعلاقات يعقوب بأخيه عيسو وإسحاق بأخيه إسماعيل وأخطاء هارون وسليمان وداوود، وكان الواجب أن يعامل الجميع وفق قواعد واحدة.

كما أدت سياسة مدوني النص إلى غلبة صورة التناقض والتكرار غير المدروس وغير المعلل على مواضع متناثرة في النص، وأظهر ما يكون التناقض في مسألة البركات واللعنات والتي يرسلها النص على عموم الشعب اليهودي ثم يعود يثني عليهم دون سبب قوي ووجيه ثم لعنات ثم مدائح وبركات وهكذا دواليك، وأما الأمم الأخرى فلعنٌ على الدوام من أول التاريخ المقرائي وحتى قبل نشأة هذه الأمم إلى نهاية النص.

وبدراسة ديانات وأساطير الشرق القديم المعاصرة للفترة المقرائية، يُلاحظ أن الديانات القديمة تعامل كبار رجالها وملوكها ومنشئي ممالكها معاملة فوقية، فتثني عليهم ثناءً عظيما وتسوغ لهم أخطاءهم، حتى إنها لترفعهم بكل أريحية إلى مرتبة الآلهة، فليس من المستبعد في إطار الأثر المتبادل بين ثقافات الشرق القديم أن ينعكس هذا التعامل على نظرة مدوني المقرا لأعلامهم وأعلام خصومهم.

وفي النص التالي للإله العراقي القديم (ننورتا) بعد موته إذ ترثيه أخته الإلهة (أكيمي) بما يشير إلى مثل هذا؛ فتقول " قم من قبرك يا أخي فأمك في لهفة عليك، أمك ننخرساك في لهفة عليك، إنها تتلهف لسماع شفتيك

العذبتين...أيها الفتى لا تدع أمك تجلس باكية(١)"

ولا مبالغة حين نصف منظور المدون المقرائي لأعلام النص بأنهم يعادلون مكانة الآلهة في ثقافات الشرق القديم، غير أن اليهودية تنفي الألوهية عن البشر، فانعكس هذا الأثر على رجال الأمة في تاريخها وديانتها حتى جاءت نظرتهم لهم على النحو المذكور في طبقات الأعلام آنفًا.

وليس غريبا على المقرا مناظرة المادة الثقافية لحضارات الشرق القديم؛ خصوصا إذا كان الرب تعتريه بعض صفات اللوازم الآدمية والتي لم يحسن النص التعبير عنها بحال؛ كمسألة استراحة الرب بعد الانتهاء من خلقه "فمثلما استراح الرب بعد هذا العمل الشاق الذي قام به طوال ستة أيام الخلق، يجب أن يستريح الإنسان أيضا بعد عمله وكدحه طوال الستة الأيام الأولى من الأسبوع، فالإنسان مُطالب بأن يحاكي الرب- حسب الفكر اليهودي- في أعماله وأن يسلك طرقه وأساليبه ومن ثم كان عليه أن يكرس السبت كيوم بهجة وراحة وقداسة حسب مشيئة الرب(٢)"

هذه صورة مصغرة للبيئة التي نشأ فيها النص المقرائي، وبعض العوامل التي خرجت بتاريخه وأعلامه على نحو أدبي لا يخلو من تشويق وتصدير متعمد لأفكار ودلالات بعينها، لا تخرج عن كونها ببساطة مادة قابلة للدراسة والاستفهام، ويصعب على قارئها إمرارها على نحو من السذاجة الإيمانية الصِرفة.

---

١ - ناجح المعموري (٢٠٠٢) التوراة السياسي؛ السلطة اليهودية: أنساقها ووظائفها، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط: أولى، ص: ٢٨.

٢ - محمد الهواري (١٩٩٤) السبت والجمعة في اليهودية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط: أولى، ص: ٣٠.

الخاتمة

دراسة النص المقرائي توقف الباحثين على أنه مزيج حي من المتناقضات المسبوكة في قالب أدبي مقبول الصياغة؛ موقوف عقلًا مردود نقلا في بعض مواضعه وفق تقاليد الشريعة اليهودية بتفاصيلها الدقيقة.

والأرثوذوكسية اليهودية تستسيغ الصيغة النهائية المتعارف عليها من النص (الأسفار القانونية) بمزيد من القبول والتقديس؛ وليس ذلك إلا لأن مدوني النص، حينما ثبتوه في صورته المتداولة، جعلوا تاريخ أحد أفرع الأسرة الإبراهيمية هو محور هذا الكتاب، وبالتالي فالتناول اليهودي له، لا يحكمه فقط الوازع الإيماني وإنما يتعدى إلى مستوى نفسي عميق وهو آلية الدفاع عن التاريخ الذاتي للفرد والجماعة في التاريخ اليهودي العام، فالفرد اليهودي بقبوله للنص على هذا النحو من التأريخ والعرض العقدي والتشريعي ودفاعه عنه، رغم عدم قناعة كثير من الباحثين اليهود بعدم استقرار جذور النص وميوعة تاريخ الأصول، إلا أنهم ينطلقون من شعور الدفاع عن الذات وعن تاريخه هو كشخص بقدر أكبر من دفاعه عن فكرة الإيمان المجرد.

وهو ما يفسر لنا أحيانا استراتيجية الإلحاد اليهودي عند بعض كبار علماء اليهود المحدثين، فهم ملحدون حينما يكون الحديث عن العقائد بشكل عام، ومؤمنون أعمق ما يكون الإيمان حين يكون الحديث عن اليهودية ذاتها. من هذا الباب؛ جاء منهج مدوني النص المقرائي موقوفًا على إرادة المدونين وليس وفقا لقواعد المنطق الإنساني المجرد في التأريخ والترجمة، وقد وقفني هذا على عدة نتائج منها:

- المدون المقرائي في عرضه للنص، لم يكن يرى سوى ثلاثة مصادر، وهي (الله) والشعب والأرض، ولهذا كان في حقيقة الأمر يؤرخ لهذه الثلاثة وما عداها فهو مسخر لعرض الصورة المثلى لها.

- عجز المدون المقرائي القديم عن رتق الفتوق الناجمة عن مشاكله النفسية مع خصوم التاريخ اليهودي العام، فجاء تأريخه لبعض الشخصيات والأحداث واقعا تحت سيطرة الخصومات وأثرها وليس وفق المنهج التأريخي العام.
- يحدد مدون النص قيمة كل شخصية حسب قيمتها ودورها في التاريخ العام للجماعة، ومن خلال ذلك يحدد مدى استعداده للدفاع عن هذه الشخصية وإلى أي مدى يمكن أن يسوغ لها تصرفاتها وحتى اللاأخلاقية منها.
- نظرا للمنهج الذي اتبعه المدون التوراتي، فقد تأثرت صورة الإله في النص على نحو سلبي واضح بما لا يتداركه التأويل في بعض الأحيان.
- النص المقرائي؛ نص أدبي وابنٌ لبيئته، جرى عليه ما جرى على آداب الناس، فوقع فيه ما استدعى التوقف عنده بمزيد من الاستفهام؛ يبديه كل قارئ عند مطالعته.

يبقى أن هذه الدراسة هي نتيجة جهد بشري يسعى جاهدا لإدراك الصواب، وقد تحتمل من مظنة الصواب بقدر ما تحتمل من مظنة الخطأ، فإن كنت قد وفقت فبها ونعمت وذلك الذي سعيت لأجله وإن كانت الأخرى فحسبي أني حاولت راجيًا أن يُنسخ خطئي بصواب العلماء الأجلاء.

المصادر والمراجع:

ספר תורה–נביאים וכתובים . ירושלים . 1991 .

الكتاب المقدس، الترجمة العربية، إصدار دار الكتاب المقدس، القاهرة، طبع في اليابان، ط الثالثة ٢٠٠٥م.

أولا: المصادر والمراجع العربية

- حسن ظاظا (١٩٧٥) الفكر الديني الإسرائيلي؛ أطواره ومذاهبه، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية. (٢٠١٥) أبحاث في الفكر اليهودي، مكتبة الأسرة، مصر.

- سامي الإمام، الفكر العقدي اليهودي؛ موسوعة الجيب، بدون بيانات نشر.

- سوزان السعيد يوسف (٢٠٠٥) المرأة في الشريعة اليهودية؛ حقوقها وواجباتها (دراسة مقارنة مع حضارات الشرق الأدنى القديم) ط: أولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

- شريف حامد سالم (٢٠١١م) المصدر اليهوي في التوراة، دراسة في المضامين التاريخية والدينية والسمات اللغوية، مكتبة مدبولي، ط: أولى.

- محمد الهواري (١٩٩٤) السبت والجمعة في اليهودية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط: أولى.

- محمد خليفة حسن (٢٠٠٢) تاريخ الديانة اليهودية، دار الثقافة العربية، القاهرة. (٢٠٠٢م) مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم، القاهرة.

- ناجح المعموري (٢٠٠٢) التوراة السياسي؛ السلطة اليهودية: أنساقها ووظائفها، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط: أولى.

ثانيا: المصادر المترجمة

- ألان كوري، فهم التلمود، ت: سامي الإمام، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠١٧م.
- جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ت: د/ نبيلة إبراهيم، مراجعة: د/ حسن ظاظا (١٩٧٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج: ١.
- جيورج فورر، تاريخ أدب بني إسرائيل وبدايات الأدب اليهودي، ت: أحمد محمود هويدي، مراجعة: محمد خليفة حسن (٢٠١٨) ط: أولى.
- دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ت: بيومي قنديل (٢٠١٥) المركز القومي للترجمة، مصر.
- روبن فايرستون(وآخرون)، ذرية إبراهيم؛ مقدمة عن اليهود للمسلمين، ت: عبد الغني بن إبراهيم، معهد هارييت وروبرت للتفاهم الدولي بين الأديان؛ اللجنة اليهودية الأمريكية.
- ريتشارد اليوت فريدمان (٢٠٠٣م). من كتب التوراة، ترجمة عمرو زكريا، دار البيان للنشر والتوزيع، ط:١.
- موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي (٢٠٠٨م). دلالة الحائرين، عارضه بأصوله العربية والعبرية د/ حسين أتاي، مكتبة الثقافة الدينية ط ٢، القاهرة.
- يعقوب ملكين، يهودية بلا إله، ت: أحمد الراوي، مراجعة وتعليق: أحمد محمود هويدي (٢٠١٢) مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة.

ثالثًا: المصادر الأجنبية:

- SARA KARESH & MITCHELL M. HURVITZ (2006) ENCYCLOPEDIA OF JUDAISM FACTS ON FILE Infobase publishing New York p: 107.
- W. O. E. OESTERLEY D.D. Litt.D. THEODORE H. ROBINSON D.D. LITT.D AN INTRODUCTION TO THE BOOKS OF THE OLD TESTAMENT (1961) PRINTED IN GREAT BRITAIN P: 22.

رابعًا: المجلات والدوريات العلمية:

-أحمد محمود هويدي (٢٠٠٠م). تاريخ الآباء وديانتهم، رؤية نقدية في ضوء نظرية مصادر التوراة، مجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة، مجلد (٦٠)، عدد (١) يناير.

Sources and References:

ספר תורה-נביאים וכתובים. ירושלים. 1991.

The Bible, Arabic translation, Publishing House of the Bible, Cairo, printed in Japan, third edition, 2005 AD.

First: Arab sources and references

Hasan Zaza (1975) Israeli Religious Thought; Phases and Doctrines, Department of Palestinian Research and Studies (٢٠١٥) Research on Jewish Thought, The Family Library, Egypt

Muhammad Al-Hawari (1994) Saturday and Friday in Judaism and Islam, Al-Zahraa for Arab Media, First Edition

Muhammad Khalifa Hassan (2002) The History of the Jewish

Religion, House of Arab Culture, Cairo. (٢٠٠٢)A critical introduction to the books of the Old Testament, Cairo

Najeh Al-Maamouri (2002) Torah politician; The Jewish Authority: Its Forms and Functions, Eligibility for Publishing and Distribution, Jordan, i: first.

Sami al-Imam, Jewish dogmatic thought; Pocket Encyclopedia, without publication data.

Suzan Al-Saeed Yusef (2005) Women in Jewish Law; Its Rights and Duties (a comparative study with the civilizations of the ancient Near East) i: First, an eye for human and social studies and research.

Sherif Hamed Salem (2011 AD) The Jewish Source in the Torah, a study on historical and religious contents and linguistic features, Madbouly Library, first edition.

Second: Translated sources:

Alan Curry, Understanding the Talmud, T: Sami Al-Imam, National Center for Translation, Egypt, 2017 AD.

Donald Redford, Egypt, Canaan and Israel in Antiquity, T: Bayoumi Kandil (2015), National Center for Translation, Egypt.

George Furer, History of the Literature of the Children of Israel and the Beginning of Jewish Literature, T: Ahmed Mahmoud Howeidi, Revision by: Muhammad Khalifa Hassan (2018) i: first

James Fraser, Folklore in the Old Testament, T: Dr. Nabila Ibrahim, Revision by: Dr. Hassan Zaza (1972) The Egyptian General Authority for Book, Part 1.

Musa ibn Maimun al-Qurtubi al-Andalusi (2008 CE). The

significance of the perplexed, opposed by Dr. Hussein Atay, to his Arabic and Hebrew origins, Religious Culture Library, 2nd floor, Cairo.

Robin Firestone (and others)، Abraham's offspring; Introduction to Jews for Muslims, T: Abd al-Ghani bin Ibrahim, Harriet and Robert Institute for International Interfaith Understanding; American Jewish Committee

Richard Elliot Friedman (2003). Of the books of the Torah, translated by Amr Zakaria, Dar Al Bayan for Publishing and Distribution, ed: 1

-Yaqoub Malakin, a Jew without God, T: Ahmad Al-Rawi, Review and Commentary by: Ahmed Mahmoud Howeidi (2012) Cairo University Center for Languages and Translation

Third: Foreign Sources

SARA KARESH & MITCHELL M. HURVITZ (2006) ENCYCLOPEDIA OF JUDAISM FACTS ON FILE Infobase publishing New York p: 107.

W. O. E. OESTERLEY D.D. Litt.D. THEODORE H. ROBINSON D.D. LITT.D AN INTRODUCTION TO THE BOOKS OF THE OLD TESTAMENT (1961) PRINTED IN GREAT BRITAIN P: 22.

Fourth: Scientific Journals and Periodicals:

Ahmed Mahmoud Howeidi (2000 AD) History and Religion of the Fathers, a critical view in light of the theory of the sources of the Torah, Journal of the Faculty of Arts - Cairo University, volume (60), issue (1) January.

رابعًا :
أصول الفقه